الليل في شعر امرئ القيس – قراءة جديدة –

أ.م.د. نصرت صالح يونس
كلية التربية للعلوم الإنسانية – جامعة الموصل

تاريخ الاستلام تاريخ القبول
٢٠٢١/٢/٢٢ ٢٠٢١/٣/١٥

الملخص

شغلت ظاهرتا الليل والنهار – في الشعر الجاهلي– الباحثين في حقل الأدب قديماً وحديثاً. إذ تحدثت كثير من المقاربات عن هاتين الظاهرتين سواء كان الحديث عرضياً أم بحثاً مستقلاً، إلا أن تلك المقاربات ذهبت في أغلبها إلى أن الليل في النص الجاهلي يمثل فضاءً مضاداً، إذ عبر الشعراء عن تذمرهم وشكواهم من هذا الفضاء الزمني، ومن خلال قراءتنا للشعر الجاهلي وجدنا أن ما ذهبت إليه المقاربات النقدية لا تمتلك صفة الإطلاق لاسيما في شعر امرئ القيس، فالشاعر أحياناً يصور الليل بأنه عالم مغيب للإمكانيات ويمنع الشاعر تحقيق وجوده التام؛ لغياب الإمكانيات التي يمكن أن ينفتح عليها الشاعر، وهذا الغياب يجعل الشاعر يفكر في مصيره الحتمي ويحس أنه كائن معد من اجل الموت، لذا نراه يصرح بشكواه، وأحيانا أخرى يصوره الشاعر فضاءً زمانياً يساعده في تحقيق رغباته ويفتح له عالما من الممكنات، بل نرى الليل في بعض نصوصه يتعاطف معه ويتماشى مع نفسية الشاعر، فقام البحث على محورين أساسيين هما: الأول/ الليل منبوذا، والمحور الثاني/ الليل جاذباً.

المقدمة

ليس هناك من شك في أن الزمن الميقاتي ذو سرعة واحدة في جريانه الا أن الإحساس الإنساني غير ثابت تجاه حركة الزمن، فهي تبدو سريعة تارة ومتثاقلة بطيئة تارة اخرى، ذلك ان الإنسان يصغي لقياساته الداخلية التي تتحكم فيها الحالة الشعورية التي يمر بها مما يحمله على إلغاء القياسات الخارجية، إذ يقول هانز ميرهوف معلقا على هذه الظاهرة ((حين يبدو لك الزمن طويلا فهو عندئذ طويل، وحين يبدو قصيرا فهو بالطبع قصير، ولكن كم هو طويل أو كم هو قصير في الواقع هذا ما لا يعرفه إنسان. أو لكي يكون الزمن خاضعا لتأثير القياس عليه أن ينساب بانتظام، لكن.... بوعينا لا يفعل الزمن ذلك... ووحدات قياساتنا تعسفية بحتة أو هي مجرد اصطلاحات توفيقية))[١] .

إن سرعة جريان الزمن أو بطئها تتحكم فيها الحالة الشعورية للذات، وقد انعكست هذه الحالة على موقف الإنسان من الزمن ولاسيما عندما يحس أن جريان الزمن في الحاضر بطيء؛ لان ((الشعور بالآن لا يتم حقا إلا في حالة القلق الهائل وهذا ما يفسر لنا لماذا نشعر بطول الزمن جدا في حالة القلق والخوف)) [٢]، وتتجلى هذه الظاهرة عند الشاعر الجاهلي في موقفه من زمن الليل في اغلب الأحيان والنهار أحيانا أخرى.

وهذا يعود إلى اختلاف طبيعة الليل والنهار فالليل يتعلق بالجانب المظلم، جانب الفناء ومن اجل هذا يجعل مركز تفكيره الموت وعنده أن الأولوية للوجود على الفكر، بعكس قانون النهار الذي يجعل الفكر أساساً للوجود، ولهذا نرى أن العقل يسود بأحكامه عند قانون النهار، في حين أن العاطفة هي وسيلة المعرفة الرئيسة في نظر وجدان الليل[٣]، فالإنسان في الثقافات القديمة يكف عن اغلب نشاطاته الحيوية ليلا فيحس بثقل الزمن وتباطئه؛ لأن الإنسان لا يمكن ان يشعر بوجوده الكامل الا من خلال تحقيق الإمكانيات المفتوحة أمامه وعندما تحجب الإمكانيات ليلا يكف عن ممارسة نشاطاته الحيوية فيرى في الليل عالما من الرعب والتجمد والخوف. إذ يضرب عليه الليل سدولاً تفصله عن الوجود المحيط به فيغدو غير قادر على التمييز بين الأشياء[٤].

ومن هنا فإن اغلب الشعوب القديمة –كما أسلفنا– انحازت إلى عالم النهار الذي يمثل عندها صورة للتجدد والاستمرارية في حين رأت في الليل عالما من التحجر والتجمد ولم يكن المجتمع العربي القديم بدعا بين تلك المجتمعات فقد انحاز إلى عالم النهار[٥] ولكن انحيازه لم يكن يحمل صفة الاطلاق على مستوى النتاج الشعري على الأقل، إذ نجد الشاعر الجاهلي أحيانا يرى في الليل زمنا يحمل في طياته حياة احتفالية مليئة بالمسرات ويرى في النهار أحيانا زمنا مليئا بالآلام ومنغصات العيش. ولكن المقاربات النقدية التي تناولت هذا الجانب ذهبت إلى أن الليل عند الشعراء الجاهليين يمثل رمزاً للشقاء، إذ يقول المرزباني ((انما

اجمع الشعراء على ذلك من تضاعف بلائهم بالليل وشدة كلفهم لقلة المساعد وفقد المجيب وتقيد اللحظ في اقصى مرامي النظر الذي لابد ان يؤدي إلى القلب بتأمله سببا يخفف عنه أو يغلب عليه))[٦]. فالليل زمن ميت كون الانشطة الحيوية التي يمارسها الإنسان تتوقف في غمرته، ومن هنا كانت نظرة الشاعر الجاهلي إلى الليل نظرة ((تتجاوز المستوى الوجداني إلى مستويات اخرى فيتعامل مع الليل كظاهرة زمنية وجودية وفق رؤية شاملة يتمازج في استيعابها الهم الداخلي بالهموم الخارجية. ولذلك عبر في العديد من المواقف عن عجزه أمام قسوة الليل وشراسته)) [٧]. ولعل هذه الاحكام التي تحمل طابع الشمول والتعميم صدرت جراء اعراب الشعراء عن مقتهم لليل والضجر منه بأسلوب مباشر بعيد عن التلويح، إذ إن لفظة الليل تكون حاضرة عند شكوى الشاعر من هذا الزمن على العكس من ضجر الشاعر وشكواه من زمن النهار، فالأعشى يصدر حديثه عن عتمة الليل وشدة وطأتها عليه بـ(وليل)، إذ يقول: [٨]

وليـــلٍ يقـــولُ القَـــومُ فـــي ظُلُمَاتِـــهِ ســـواء بصـــيرات العيـــونِ وعورهـــا

كـــأنَّ لنـــا فيـــه بيوتـــاً حَصـــينةً مســـوحٌ أعاليهـــا رســـاج كســـورها

إن هذا الليل ليس ككل الليالي التي مرت بالشاعر انه ليل استثنائي، إذ إن سدلته المظلمة ساوت بين المتضادات (بصيرات، عورها) وهذا الاحساس لا يقتصر على الذات الشاعرة بل يشمل الجميع، فضلا عن أن الليل ثابت متحجر لا يمكن اختراقه أو الافلات من قبضته، إن ظاهرة الشكوى من الليل والاحساس بثقل خطاه ظاهرة مبثوثة في الشعر الجاهلي في حين لا نجد في شعر ذلك العصر تعبيرا مباشراً عن توافق الشعراء وسعادتهم مع هذا الوقت وانما نستشف هذا من خلال إشارات أو أحداث ذات مرجعية ليلية.

الليل منبوذاً :

تكاد تجمع المقاربات النقدية على أن الليل اشد منغصات عيش امرئ القيس، كما اتفقت تلك المقاربات على أن الشاعر أجاد في التعبير عن احساسه الفجائعي تجاه الليل، إذ يقول المرزباني متحدثا عن وصف الشاعر لليل في معلقته ((وأبيات امرئ القيس في وصف الليل أبيات اشتمل الإحسان عليها والحذق فيها)) [٩]، وتعود جمالية تلك اللوحة –حسب رأينا– إلى البناء الاستعاري الذي هيمن فيها وتقنية الحوار بين الشاعر وليله الرهيب ((من حيث كان هذا الليل –كما صوره الشاعر– اشبه شيء بالكابوس المرعب، يظهر طابع الكابوس على وجه الخصوص في تشخيص الليل وجعله شبيها بكائن خرافي يهاجم الشاعر ويجثم عليه))[١٠]، إن استذكار الشاعر لليله المخيف تولد جراء استذكاره لجفاء المرأة/ فاطمة، إذ يقول[١١]:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدُوله عَلَيَّ بأنواعِ الهُمُومِ لِيُبْتَلي

فَقُلْتُ لهُ لمّا تَمَطّى بجوزِهِ وأردفَ أعجازاً ونَاءَ بِكَلْكلِ

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلِ بِصُبحٍ وما الإصباح مِنْك بأمثلِ

فيالك من ليلٍ كأن نَجومهُ بكل مغار الفتل شدت بيذبلِ

إن جفاء المرأة واقعيا أو تخيليا جعل الشاعر يستذكر أوقاتاً مأزومة وتحول تضاد الشاعر مع الإنسان إلى تضاد مع الزمن (الليل) ومن هنا فإن حركة الليل تماثل في مضمونها وحدة فاطمة إذا جاز التعبير.

لذا نجد الشاعر لا يحاول تجاوز الليل أو الانتصار عليه، فهو لا يملك سوى الاحتجاج القولي الذي يصاحبه غياب تام للفعل وهذا ما جعل الشاعر لا يرى في حركة الزمن الا باعثاً للقلق والتوجس، فالليل إذا انزاح سيطر صباح مماثل له[١٢]، إن الليل في المعلقة يشكل البؤرة التي تفرعت منها لوحات القصيدة فحتى لوحة الصيد لم تكن حركة مضادة لخواء الليل بل تحول مؤقت سرعان ما تلاشى أمام لوحة المطر[١٣]، لقد انتزع الليل الشاعر من اطار الحياة الحقة عندما فرض عليه طوقا من العزلة وفصله عن الوجود المحيط به. واذا كان الشاعر لم يؤطر مكان زمن ليله ولم يصرح بأسباب ضجره من ذلك الليل فإننا نجده في موضع آخر يشكو من طول ليله في أرض دمون، إذ يقول[١٤]:

تطاول الليل علينا دمّون دمّون إنّا معشر يمانون

وإننا لاهلنا محبون

إن الشكوى من طول الليل في ذلك المكان تولدت جراء سماع الشاعر لمقتل أبيه. فقد ولد الخبر أسىً عميقاً في نفسه جعله يحس بانفصال حاد بينه وبين صحبه فلجأ إلى أنسنة المكان ومخاطبته باثاً له شكواه عندما لم يجد من يشاركه بآلامه وأحس في تلك اللحظة بالضياع المطلق، إذ لا نجد لديه نزعة تهديدية أو التخطيط لفعل مستقبلي. لقد ظل الاحساس بالضياع ملازما للشاعر بعد فقده لأبيه، إذ يتفجر في اغلب الأحيان ليلا، فها هو يعبر عن ضياعه في مكان طارد وفي ظل ليل قاس لم يصرح الشاعر به وإنما يستدل عليه من خلال حضور لازمة من لوازمه تمثلت بالبرق اللامع وذلك أثناء رحلته إلى القيصر، إذ يقول(١٥):

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ولابن جريج في قرى حمص أنكرا

نشيمُ بروق المُزن أين مصابه ولا شيء يشفي منك يآبنة عفزرا

إن فشل الشاعر في مسعاه وتنكر الإنسان (ابن جريج) والمكان (بعلبك) جعلاه يتجه بنظره صوب البرق الذي لا يدري أين سيصب ماءه ولمن ستكون الغلة أو الاذى الناتجين عن البرق المراقب وهذا الجهل – شعريا – يكشف عن عجز الشاعر التام عن التغيير والفعل فاكتفى بالإعراب عن ضياعه في تلك البيئة المعادية.

وفي موضع آخر نرى الشاعر يشكو من طول ليله مترقبا مجيء الصباح بسبب نبأ سيء وصله عن إنسان يكن له الاحترام مما جعل الشاعر لا يغمض له جفن، إذ يقول(١٦):

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخليُّ ولم تَرْقُدِ

وباتت وباتت له ليلةٌ كليلة ذي العائر الأرمد

وذلك من نبأ جاءني وأنبئتُهُ عن أبي الأسود

ولو عن نثا غيره جاءني وجُرح اللّسان كجرح اليدِ

لقلت من القول ما لا يزا ل يُؤْثرُ عنّي يَدَ المُسْنَدِ

بأيّ علاقَتَنا ترغَبُون أعنْ دمِ عمْرٍو على مرْثَدِ

فباسلوب تجريدي يكشف الشاعر عن مكابدته وأرقه من طول ليله في فضاء مكاني تحيل تسميته إلى عالم الظلمة (الأثمد)، وإذا ما علمنا أن المعنى المعجمي لهذه المفردة هو السواد فإن الشاعر بهذا يحاصره ظلامان ظلام الليل وظلام المكان وهو أرقٌ لا يقدر على النوم مصورا أرقه عبر أسلوب تشبيهي، إذ شبه عدم نومه وأرقه المتواصل بأرق الأرمد الذي لا يغمض له جفن جراء الألم الذي يعاني منه بسبب داء الرمد، علما أن هذه المعاناة تولدت جراء سماع نبأ اقض مضجعه لكونه صادرا عن شخصية ليس هناك تضاد بينها وبينه، إلا أن

ثمة فاصل مكاني يفصل بينهما، يدل على هذا الفعل المبني للمجهول (أُنبئتهُ) فالنبأ لم يقرع اسماع الشاعر مباشرة من قبل ذلك الشخص (أبي الأسود) وإنما تكلف بإخباره شخص آخر غيبه النص ولكن أي نبأ هذا؟ إنه نبأ يوحي بتعاطف كنانة مع بني أسد هذا إذا ما عرفنا أن أبا الأسود المتحدث عنه كناني النسب(١٧).

والشاعر لا يستطيع مهاجمة هذه الشخصية على المستوى القولي حرصا منه على ان لا تنبت عرى التواصل بينه وبين القبيلة المذكورة ولو أن الأخبار التي وصلت الشاعر من قبيلة أخرى لسدد سهام قوله إليها ووظف شاعريته من اجل النيل منها وجلّلها عارا من خلال هجائه لها بقصائد تبقى خالدة ابد الدهر وتتراواها الأجيال جيلاً بعد جيل (يُؤْثرُ عني يَدَ المُسْنَدِ) وإذا كانت اغلب شكوى الشاعر من الليل متولدة جراء مقتل أبيه، فإننا نجده يشكو من ليله الطويل والهموم المتواردة عليه جراء استذكاره لوقوفه على بعض الأطلال، بقوله(١٨):

غشـــيت ديـــار الحـــي بـــالبكرات فعارمـــــةٍ فبرقـــــةِ العِيَـــــرَاتِ

فَغْـــولٍ فحلّيـــت فنـــفءٍ فمَـــنْعجٍ إلـــى عاقـــل فالجُـــبِّ ذي الأمـــراتِ

ظللـــتُ ردائـــي فـــوق رأســـي قاعـــدا أعـــدُّ الحصـــى مـــا تنقضـــي عبراتـــي

أعنِّـــي علـــى التَّهْـــام والـــذِّكرات يبـــتنَ علـــى ذي الهـــم معتكـــراتِ

بليـــل التَّمـــام أو وصِـــلْنَ بمثلـــه مقايســـــةً أيامهـــــا نكـــــراتِ

إذ يعبر الشاعر عبر استذكاره لوقوفه على الأطلال عن مدى حبه لتلك الأمكنة سواء أكانت أمكنة واقعية أم أنها متخيلة أو كان وقوفه حقيقياً أم فعلاً تخيلياً صرفاً(١٩). يستشف مدى ذلك التعلق من خلال الفعل (غشى) والذي يعطي من بين دلالاته المعجمية التغطية(٢٠)، وهذا يعني ضمنا أن الشاعر غطى ببصره كل تلك الأمكنة تباعا توحي بهذا علاقة التعاطف بين تلك الأماكن بواسطة (الفاء) التي تفيد الترتيب والتعاقب والشاعر في وقوفه عبر عن أزمة وعيه ((امام المكان الذي يتحول دائما إلى زمان / ذكرى... مما يشي بعبثية الحياة تحت وطأة الفقد، والصيرورة الزمنية)) (٢١)، وأمام شرط التحول القاسي أحس الشاعر بهشاشة الوجود الإنساني وعبثية فعالياته فلم يستطع سوى أن يقعد في عرصات المكان متوقيا حرّ الهجير بردائه الذي غطى به رأسه معبرا عن عجزه، خالقا معادلا موضوعيا لما يعتلج بداخله عبر الفعل العبثي الذي يمثل الحيلة الوحيدة عد الحصى(٢٢)، لذا نراه يستعين بالآخر بأسلوب امري (أَعِنِّي) ولكن على أي شيء يعينه؟ إنه يطلب من صاحب له (مفترض أو واقعي) أن ينقذه من الذكريات والهموم المتواردة عليه في ليل من أطول ليالي العام (بليل التمام) لقد أطلّت على الشاعر الذكريات المؤلمة التي لم يفصح عن فحواها، لكننا نستشف أنها أشعرته بحركة

الزمن وافتقار الإنسان إلى الثبات فهو دائما في تحول مستمر لا يعرف للثبات طعما. وقد جاء توارد الهموم والذكريات ليلا؛ لأن هذا الظرف الزماني يجعل الإنسان مفرداً في اغلب الأحيان متأملا ما يدور حوله، فالليل –كما أسلفنا– يتعلق بالجانب المظلم جانب الفناء،لذا نجد الذات الشاعرة في اغلب الأحيان مستاءة متشائمة من الليل خالعة عليه صورة سرمدية ولاسيما إذا كان الشاعر يعاني من اضطرابات ومشاكل محيطة به من كل جانب كما هو الحال مع امرئ القيس. ولا يقتصر الشاعر في تصوير أثر الليل السلبي على ذاته وإنما يصور تعدي هذا على حيوان الطبيعة وكيف يقاسي الحيوان ثقل الليل تحت شرط بيئي قاس نجد هذا في قوله وهو يسرد ليلة قاسية مرّ بها ثور وحشي[٢٣]:

كأنّي ورحلي فوق أحقب قارح … بشربة أو طاوٍ بعرنان موجسِ

تعشّى قليلا ثم أنحى ظلوفَه … يثير التراب عن مبيتٍ ومكنسِ

يهيل ويذري تربها ويثيره … إثارة نبّاث الهواجر مخمسِ

فبات على خدٍّ أحمَّ ومنكب … وضِجْعتَهُ مثلُ الأسير المكردسِ

وبات إلى أرطاةِ حقف كأنها … إذا ألثقتها غبيةٌ بيتُ مُعرِسِ

إن اللوحة المتقدمة لوحة تقليدية، إذ درج الشعراء على تصوير حالة الثور ليلا تصويراً مشابها وهذا التشابه حمل بعض النقاد إلى القول بأن صورة الثور في النص الجاهلي ذات بعد أسطوري، اذ ربطت كثير من الدراسات ((كثرة توارد قصة الثور في القصيدة الجاهلية بالأصول الميثودينية وأطروحاتها وتصوراتها مستعينة بذلك بالعلوم الميثولوجية والاركيولوجية وحتى النفسية منها في ذلك طرح يونج في اللاشعور الجمعي والنماذج العليا)) [٢٤]، فالثور على وفق منظورهم رمز للإله القمر الذي تحاول حجبه الغيوم[٢٥]. وسواء أكان التفسير الأسطوري دقيقا ام لا فإن ما يهمنا أن الثور في الأبيات المتقدمة عانى ما عاناه في ذلك الليل فهو خائف متوجس وعشاؤه قليل، سواء على المستوى الزمني أو الكمي جراء توجسه وخوفه، فضلا عن انه حاول جاهدا أن يصنع له ملاذا بسرعة تضارع سرعة حمار وحشي متجها صوب المياه لكونه لم يشرب منذ خمسة أيام. ومن خلال هذا التشبيه نستشف أن الملاذ الذي يحاول الثور صنعه يمثل حماية ضد أخطار محدقة –سكت عنها النص– تماثل خطر العطش المميت الذي يعاني منه الحمار.

وبعد أن ينتهي الثور من حفر خبائه يبيتُ ليلته تحيط به ظروف مزرية صورت عبر تشبيه اضطجاعه باضطجاع الأسير، ولا شك أن الشاعر في حديثه عن الثور لا يقدم سردا لحدث واقعي، وإنما قدم صورة متخيلة شخوصها تكابد مظاهر شتى من القهر والاستلاب،

فالثور قلق متوجس والحمار (المشبه به) يعاني من اضطهاد الطبيعة التي شحت بمياهها فقضى ليله بحثا عن المياه، والإنسان (المشبه به الثاني) مستلب لا يملك من أمره شيئا (أسير مكردس) وهذه الكائنات الثلاثة (الثور، الحمار الوحشي، الإنسان) نظمتها علاقة التشابه المشترك المتمثلة بالقهر والاستلاب سواء على المستوى الحيواني أو الإنساني لذا نجد التداخل بين ما هو إنساني وما هو حيواني حاضرا في النص، وما يهمنا هو أن أشكال القهر التي مورست ضد الشخوص الثلاثة نفذت ليلا وبهذا استطاع الشاعر أن يجعل سلبية الليل ذات بعد كوني بعد أن تجاوزت العالم الإنساني لتضم تحت جناحها العالم الحيواني.

الليل جاذباً :

إذا كان الليل زمنا منبوذا في الثقافات القديمة –كما أسلفنا– فقد يظهر بصورة ايجابية في النص الشعري على الأقل، فالليل في شعر امرئ القيس يكشف عن جلالة حدث هو مقتل (حجر) ابي الشاعر وذلك عبر تفجر البروق التي أضاءت أعالي الجبال وذلك في قوله[٢٦]:

عجبت لبرق بليل أهلْ يضيء سناه بأعلى الجبلْ

أتاني حديث فكذبته وأمر تزعزع منه القللْ

لقتل بني أسد ربّها ألا كلُّ شيء سواه جللْ

إن البرق كما هو قار في الثقافات القديمة رمز هداية وبشير خير، لكنه في النص المتقدم ذو بعد أسطوري، فهو رمز لجوبتير إله البرق والصواعق[٢٧] الذي ثار غضباً جراء تجاوز بني أسد على مقام الآلهة بقتلهم ملكهم الذي يمتلك صفات قدسية (ربها)، هذا إذا ما تذكرنا أن العرب في عصورهم الأولى كانوا يؤلهون الملوك[٢٨]، والقتيل كما يوحي النص اله الخصب والتجدد، انه الإله القمر (بعل) يستشف هذا من خلال تأنيث الشاعر للأسديين عبر حضور الضمير (ها) في (ربها) العائد للقبيلة المذكورة.

وعلى أية حال فإن فضاعة الحدث وجلالته تبلورت ليلا عبر البرق اللامع الذي أضاء سناه قمم الجبال التي تستقر فيها الآلهة كما تشير كثير من الأساطير[٢٩]، ولذا فهي تتمتع بقدسية عند اغلب الشعوب القديمة، إن الليل في الأبيات المتقدمة يمثل فضاء زمانياً جاذبا، لأن غضب كبير الآلهة (جوبتير) تجلى في هذا الظرف الزماني، ونلمح في مواضع أخرى من شعر امرئ القيس تصالحه مع الليل فقد مكنه الليل من تحقيق مغامرة نسوية، على الرغم من المسافة الشاسعة التي تفصل بينه وبين المرأة المغامر معها، إذ يقول[٣٠]:

تنورتها من أذرعاتٍ وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالِ

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيحُ رهبان تشبُّ لقفالِ

سـموت إليهـا بعـدما نـام أهلهـا سمو حباب الماء حالا على حالِ

* * * * * *

فلمـا تنازعنـا الحـديث وأسـمحت هصـرت بغصـن ذي شـماريخ ميـالِ

وصـرنا إلـى الحسـنى ورق كلامنـا ورضـت فـذلت صـعبة أي اذلالِ

فأصـبحت معشـوقا وأصـبح بعلهـا عليـه القتـام سـيء الظـن والبـالِ

فبفضل سواد الليل وسكونه استطاع الشاعر أن يقطع مسافة شاسعة ليصل إلى مبتغاه فأذرعات المكان الذي انطلق منه الشاعر ((من حدود الشام. ويثرب؛ مدينة الرسول ﷺ))[٣١]، ولكن كيف تأتى له أن يقطع هذه المسافة بليلة واحدة؟ إن حديث الشاعر غير معقول واقعيا كما ألمح لهذا الشارح[٣٢]. ولكنه مقنع فنيا؛ لأن للفن منطقاً خاصاً يغاير المنطق العادي[٣٣]، لقد استطاع الشاعر فنيا أن يصل إلى مبتغاه ويشبع غريزته الحادة التي جعلت المرأة تتجاوز كل القيم وتتخذ الشاعر عشيقا لها، على الرغم من أنها على ذمة رجل آخر، إن غاية الشاعر من سرد هذه المغامرة هو الكشف عن قدرته المتناهية التي لا تحدها العوائق القيمية والمكانية، ساعده على ذلك سواد الليل وعتمته، وتكرر المغامرة الليلية في معلقته. إذ استطاع الشاعر بفضل سدل الليل أن يصل إلى فتاة ممنعة متجاوزا كل الأخطار التي تحف بمن يحاول الوصول إليها، إذ يقول[٣٤]:

وبيضـةُ خِـدرٍ لا يُرَامُ خُباؤهـا تَمَتعـتُ مـن لهـوٍ بهـا غيـرَ مُعَجَـلِ

تجـاوزتُ أحراسـا وأهـوال معشـر علـيّ حِـراص لـو يشّـرون مقتلـي

إذا مـا الثريـا فـي السـماء تعرضـت تعـرض أثنـاء الوشـاح المفصـلِ

فجئـت وقـد نضـت لنـوم ثيابهـا لـدى السـتر الا لبسـة المتفضـلِ

فقالـت يمـين الله مالـك حيلـةٌ ومـا إن أرى عنـك العمايـة تنجلـي

خرجـت بهـا تمشـي تجـر وراءنـا علـى اثرينـا ذيـل مِـرطٍ مرحـلِ

فلمـا اجزنـا سـاحة الحـي وانتحـى بنـا بطـن حقـف ذي ركـام عقنقـلِ

إذا قلـت هـاتي نـوليني تمايلـت علـي هضـيم الكشـح ريـا المخلخـلِ

والملاحظ أن الشاعر قدم نتيجة المغامرة سلفا، وهذا التقديم كما يبدو جاء ردة فعل على تمنع فاطمة، فجاءت هذه المغامرة ردة فعل على الجفاء الذي لاقاه من تلك المرأة التي لم

تجد توسلاته واستعطافه معها نفعا، إذ بدا معها رجلا آخر لا يغالي ولا يسعى إلا لإرضائها ويقف منها موقف الند للند إن لم يكن أضعف منها، إذ نجد في حواره معها رنة حزن واسى[٣٥] وعندما يئس من استمالتها استحضر مغامرة مع امرأة أخرى في جملة شعرية لا تتطابق مع ما سبقها، إذ صدّرها بالأداة (ربّ) المضمرة التي تفيد الشمول وهذا التصدير يوحي أن هذه الجملة تغاير سابقتها مضمونياً وهذا ما حصل فعلا فتعامل الشاعر مع بيضة الخدر تعاملاً مختلفاً عن تعامله مع فاطمة. إن بيضة الخدر كما صورها النص لا تمثل للشاعر سوى مسرح للانجاز الفردي فالتمتع هو تمتع الشاعر وحده، يتبلور هذا من خلال إسناد الفعل (تمتع) إلى ضمير المتكلم (التاء) [٣٦]، فضلا عن أن هذه المرأة ليست مجال اللهو الوحيد بالنسبة للشاعر وإنما هناك مجالات أخرى لم يكشف عنها النص، يستشف هذا من خلال حضور حرف العطف (من) الذي يفيد التبعيض. فالشاعر في هذه اللوحة هو المهيمن، بينما تبدو المرأة في حالة ركود وسكون تام لا تبدي حراكا إلا بتأثير الشاعر (اذا قلت هاتي نوليني تمايلت) ويبدو لنا أن هذه الهيمنة شعريا تهديدا مبطنا لفاطمة، ولاسيما أن المغامرة التي قام بها الشاعر محفوفة بالمخاطر فالمرأة/ بيضة يصعب الوصول اليها (لا يرام خباؤها) وعلى الرغم من هذا فقد استطاع الشاعر أن يحقق مبتغاه متجاوزاً كل التحوطات التي اتخذت من اجل تحصين المرأة/ بيضة خدر، ساعده على انجاز مبتغاه سدل الليل المعتمة نلمح هذا من خلال ذكر نجم الثريا، ومن هنا فان الليل بظلمته كان عاملا مساعدا – كما يحدثنا النص– مكّن الشاعر من إفراغ توتره المتولد جراء إعراض فاطمة سواء أكان إعراضاً واقعياً أم شعرياً وجعله ملكا على عالم النساء.

الخاتمـــة

من خلال قراءتنا لظاهرة الليل في شعر امرئ القيس وجدنا انه وقف عندها وقفة مغايرة لغيره من الشعراء الجاهليين وهم يتناولون هذه الظاهرة في كثير من جوانبها ، وما توصلنا إليه أن الليل عند امرئ القيس يمثل جانباً مهماً بتوظيفه إياه في شعره، إذا إرتقى بالشخصية الفاعلة التي رسمها أمرؤ القيس لنفسه في شعره، سواء أكانت تلك الشخصية واقعية أم متخيلة، فالليل في معلقته – ولاسيما في لوحة مغامرته مع النسوة – قد أخرجه من حالة الركود والسكون التي سيطرت عليه وهو يتذكر معاناته وما أثقله من هَمٍ وأحداث متسارعة أرهقت حياته، وبذلك تأكدت لدينا صورة الليل المشرقة في دواخل الشاعر المظلمة.

الهوامش

(١) الزمن في الأدب، هانز ميرهوف ، ترجمة أسعد مرزوق، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة ، نيويورك ، ١٩٧٢م: ١٩.

(٢) الزمان الوجودي، د.عبد الرحمن بدوي، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥م: ١٧٤.

(٣) الموت والعبقرية ، د.عبد الرحمن بدوي ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٤٥م: ٤٢.

(٤) الليل في الشعر الجاهلي، جليل رشيد فالح، مجلة آداب الرافدين، ع٩، ١٩٧٨: ٥٣٧.

(٥) القارئ والنص العلاقة والدلالة، د.سيزا قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، الكويت، د.ت:٨٢.

(٦) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار النهضة ، مصر،١٩٦٥: ٣٥.

(٧) الزمان والمكان في الشعر الجاهلي ، د.باديس فوغالي ، ط١ ، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠٠٨م: ١٣٠.

(٨) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، شرح وتعليق: د. محمد محمد حسين ، مكتبة الآداب بالجماميز ، المطبعة النموذجية ، ١٩٥٠م: ١٧٣.

(٩) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء: ٣٥.

(١٠) الليل والنهار في معلقة امرئ القيس حاشية على قراءة ثانية، محمد احمد برير، مجلة فصول، مج ١٤، ع٢، ١٩٩٥: ٢٧.

(١١) ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٢ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٤م: ١٨-١٩.

(١٢) الليل والنهار في معلقة امرئ القيس حاشية على قراءة ثانية، محمد احمد برير، مجلة فصول، مج١٤، ع٢، ١٩٩٥: ٢٨.

(١٣) القصيدة والنص المضاد ، د.عبد الله الغذامي ، ط١ ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤م: ٣٧.

(١٤) ديوان امرئ القيس : ٣٤١.

(١٥) المصدر نفسه : ٦٨.

(١٦) المصدر نفسه : ١٨٥-١٨٦.

(١٧) ديوان امرئ القيس: ٧٨-٨١.

(١٨) المصدر نفسه : ٧٨-٧٩.

(١٩) الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي (البنية والرؤيا) ، د. كمال أبو ديب ، الهيئة المصرية العامة ، مصر ، ١٩٨٦م: ٦٣.

(٢٠) لسان العرب المحيط، ابن منظور ، إعداد وتصنيف : يوسف خياط ، دار لسان العرب ، بيروت ، د.ت: مادة: غشى.

(٢١) الوقفة الطللية بين القبول والتساؤل في رؤى بعض الشعراء الجاهليين، علي مصطفى العشا، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، مج١، ع١، ٢٠٠٥: ٩٦.

(٢٢) الرؤى المقنعة: ٣٣٧.

(٢٣) ديوان امرئ القيس: ١٠١-١٠٢.

(٢٤) آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي بحث في تجليات القراءات السياقية– دراسة –، د. محمد بلوحي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤م: ١٥٥.

(٢٥) الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، د.علي البطل، ط١، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠م: ١٣٠-١٣١.

(٢٦) ديوان امرئ القيس: ٢٦١.

(٢٧) معجم الأساطير، لطفي الخوري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م: ٢٣٣/١.

(٢٨) الملاحم العربية مقارنات في ضوء الأساطير والملاحم الكونية السومرية والسامية ، د.عادل جاسم البياتي ، مطبعة دار الجاحظ ، بغداد ، ١٩٧٦م: ٢٧٠.

(٢٩) الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم ، د.حسام الدين الآلوسي ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠م: ٤١.

(٣٠) ديوان امرئ القيس: ٣١-٣٢.

(٣١) المصدر نفسه :٣١ .

(٣٢) المصدر نفسه : ٣١ .

(٣٣) الزمن في الأدب : ٢٩.

(٣٤) ديوان امرئ القيس : ١٣-١٥.

(٣٥) عزف على وتر النص الشعري – دراسة في تحليل النصوص الأدبية الشعرية– ، د.عمر محمد الطالب ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٠م:٢٣.

(٣٦) المرأة في معلقة امرئ القيس بين العلاقة والمسافة، د.حسن صالح سلطان، مجلة التربية والعلم، مج ١٤، ع٢، ٢٠٠٧: ١٢٣.

Night in the Poety of Emru Al- Qais – New study-

Dr. Nasrat S.Y.

University of Mosul / College of Education for Human sciences

Abstract

The phenomena of (night) and (day) have been employed in the field of old and modern literature . Thus, Many studies have tackled with these phenomena whether indirectly or directly in an independent research . We are encouraged to study this topic for many researchers have employed (night) in the poetic text as an undesired time in which the poets express their complaints . The critical studies agree with this idea . We observe that the phenomenon of (night) does not acquire the quality of infinity , especially in the poetry of Emru Al-Qais who depicts (night) as a world that hides the capabilities and a bond that prevents the poet from achieving his complete existence for the absence of capabilities that may the poet adopts . This absence makes the poet think of his determined fate and feel of being an mortal being . Therefore, we find him disclosing his complaints and sometimes depicting a time space that assists him in achieving his desires and opening a world of capabilities . On the contrast, we observe (the night) in some of his texts sympathizes with the poet and goes with the poet's psychology. So, the research is established on two major axes : first, the (night) as an undesired ; second, the (night) as an attractive.